الأصول الدينيّة

للفنَّين الإسلاميّ العربيّ والفارسيّ*

أحمد محمّد عيسى

الكلمات المفتاحيّة: الإسلام، فنّ الشرق الأدنى، الفنّ العربيّ، الفنّ الإسلاميّ، العرب، الجمال، الفرس.

موضوع هذا المقال بحاجة إلى الكلام بصراحة لمحاولة تصحيح الأقوال الخاطئة التي تأصّلت بين الغربيّين عن الإسلام وعن المسلمين الأوائل، وهي الأقوال التي تولّدت نتيجة الغرور والتعصّب، وسوف أكون صريحًا هنا رغبةً في الوصول إلى ما يساعد على إنارة أفكارنا عن الأحوال المعقّدة، التي أحاطت الفنّ الإسلاميّ في مرحلة التكوين.

وفي اعتقادي أنّ الصراحة أمر جدّ هامّ، سواء أكانت في محلّ القبول أم الرفض، وليكن واضحًا أنّ ما أبتغيه هو السعي لتقديم غذاء فكريّ يساعد على أن نكون أكثر استمتاعًا بالفنّ الإسلاميّ من ذي قبل.

لا شكّ أنّ احتواء جانب واحد من متحف يبرر استخدام تعبير "فنّ الشرق الأدنى"، غير أنّ المسيحيّين التزموا لفترة طويلة، استخدام تعبير "الفنّ المحمّديّ" وهو تعبير رفضه المسلمون رفضًا باتًّا، لأنّهم يؤمنون أنّ محمّدًا ليس مبتدعًا لمذهب جديد، وإنّما هو نبيّ الله ورسوله، الذي أُنزل عليه القرآن هدًى للناس ورحمةً.

أمّا عبارة "الفنّ العربيّ" فخطأ كذلك، ما لم يكن للعرب فنّ خاصّ بهم، على أنّه يبدو أنّ تعبير " فنّ بلاد العرب" أقرب للصواب، ما دمنا نتحدّث عن تأثير أصحاب القوميّة العربيّة، لا عن أولئك الذين استأجرهم العرب لمعاونتهم على خلق " فنّ إسلاميّ ".

أمّا الفرنسيّون فقد أَلِفوا استخدام تعبير "الفنّ الإسلاميّ" وهو استعمال صحيح، وإنْ حمل في طياته معنى الدين بنسبة إلى الإسلام، ولهذا التعبير الأخير: "الفنّ الإسلاميّ" دلالة جغرافيّة تمتدّ من الهند الشرقيّة الهولنديّة شرقًا إلى الأطلنطيّ غربًا، ومن موزمبيق بأفريقيا جنوبًا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمالًا، وفي اعتقادي أنّه تعبير جامع شامل يحمل مبرّرات استخدامه.

وشاع خطأ بين بعض السالفين من العلماء أنّ بلاد العرب رقعة صغيرة عديمة الأهميّة، والواقع أنّ مساحتها تبلغ مليون مربّع، أي ما يعادل مساحة البحر الأبيض المتوسّط، أو ثلث مساحة الولايات المتّحدة.

* مستلّة من مجلّة رسالة الإسلام.

أمّا مساحة البلاد العربيّة كلّها، بما في ذلك العراق وسوريا وشرق الأردن وفلسطين، فتعادل مساحة الهند أو نصف مساحة الولايات المتّحدة تقريبًا، ومع ذلك لم يتجاوز تعداد سكان هذه المنطقة الشاسعة عشرين مليون نسمة في أي عصر من العصور.

وعاش العرب — قبل أن يوحّد الإسلام بينهم- قبائل متفرّقة في طرائق حياتهم وتعدّد معتقداتهم، ليس لهم فنّ خاصّ يمتازون به، ولا نصيب لهم من فنّي العمارة والنحت، غير أنّهم أشبعوا ميولهم الفنيّة بحبّهم للألوان، وبما أحاطوا به أنفسهم من أوفر الزهر ويانعة ممّا ينبت في كلّ مكان من بلادهم، وممّا نشاهده حتّى الآن حول الأكواخ المتهدّمة في الدروب الضيّقة والمدن الدارسة.

ووجد هؤلاء العرب الرحّل في انبساط الصحراء، ما أرضى حبّهم للجمال، مثلهم في هذا مثل البحّارة، الذين يطلقون تأمّلاتهم مع أمواج البحر الفسيح، ويقفون بأفكارهم أمام عجائبه المختلفة المتشابهة.

وبغض النظر عن الوسائل الفنيّة الأخرى، عبّر العرب من إحساسهم بالجمال قرونًا قبل العهد المسيحيّ، وذلك فيما أبدعوه من قصص خياليّة رائعة، وفيما نظموه من ألوان الشعر والغناء، وفيما التزموه من دقّة صارمة في تعبيراتهم وأساليبهم الكتابيّة والخطابيّة، ويرى المعنيّون بدراسة اللغة العربيّة أنّ قوانين الشعر القديم سهلة بسيطة، وهم لهذا يضعونها في مرتبة فنيّة رفيعة لما لها من الدقّة والتنوّع والروعة والجاذبيّة.

ومن الادعاءات التي يذهب إليها الكثيرون ممن درسوا موضوع الفتوح الإسلاميّة أنّ الفنّ الإسلاميّ ظهر وانتشر في حركة غير مفهومة، كما يزعم هؤلاء أنّ العرب لم يكونوا — إبّان فتوحاتهم الأولى- سوى برابرة قساة، أرغموا الناس على اعتناق الإسلام بحدّ السيف، وحكموا حكمًا مطلقًا مستبدًا مستندًا إلى أنواع القوّة والحيلة.

والمعروف أنّ الحروب عامّة كانت حتّى الصفّ الأوّل من القرن السابع الميلاديّ — أي حين بدأت الفتوح الإسلاميّة- تقترن بقسوة لا تلين، وتخريب لا يرحم، غير أنّ العرب اختلفوا عن غيرهم من الفاتحين، فلم يخرّبوا كما خرّب غيرهم، ولم يقيموا المذابح للناس، ولم يشرّدوا المغلوبين إلى جهات نائية- خشية ثورة أو انقلاب- بل ابقوا الحال على ما هي عليه، وفضّلوا أولئك الذين لبّوا نداء الإسلام طائعين على سواهم من أهل البلاد المفتوحة.

ولم يشغل العرب أنفسهم بشيء — خلال مدّة الفتوح الأولى- سوى الحرب والصلاة، ولهذا قيل لديهم الوقت الذي يتأمّلون فيه ألوانًا زاهيةً لحضارة إغريقيّة ثابتة الأصول، تتجلّى من حولهم في فنّي العمارة والنحت، هذا فضلًا عن أنّه أعوزت الفنَّ الإسلاميَّ الدوافعُ التي خلقت فنًّا مسيحيًّا قبيل عصر النهضة مثلاً، فإذا كان

للإسلام أَثَرُ قوى في الجهود الفنّيّة وقتذاك فإنّ هذا الأثر لم تؤيّده نصوص مدوّنة فيما هو لدينا من مصادر تاريخيّة ترجع إلى بداية العصور الوسطى.

على أنّ العرب —رغم قصورهم الثقافيّ حينذاك– خلقوا في جميع أنحاء إمبراطوريّتهم، شعورًا دينيًّا عميقًا، وحماسةً دافقةً، ورغبةً قويّةً في الأمن والسلام، وهذا هو ما حرّمته المسيحيّة، وهو نفسه من ألزم اللزميّات لنهضة الفنون وازدهارها.

ومن المفتريات، ادعاء بعض المؤرّخين، أنّ جهل العرب وافتقارهم لأنواع الفنون والفنّانين، دفعهم إلى تخريب ما صادفهم من آثار جميلة أثناء فتوحاتهم. ويبدو أنّ هؤلاء المؤرّخين يجهلون أنّ ما خرب من الآثار الفنيّة الرائعة، ممّا تخلّف عن العصر الساسانيّ، إنّما حدث على يد جنكيزخان وتيمور ومن خلف خلفهما، وليس على يد العرب كما يدّعي البعض.

وفي سنة 641 ميلاديّة، وقبل أن يمضي على وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلم تسع سنين، غزا العرب بلاد فارس ووضعوا أيديهم على أصول الحضارة الساسانيّة وفنونها، وغدت هذه الحضارة مصدرًا هامًّا من مصادر الفنّ الإسلاميّ، فلو أنّ تلك الحضارة أصيبت منهم بسوء لاتّجه الفنّ الإسلاميّ وجهةً غير التي يتّجه إليها حتّى العصر الحاضر.

أدهشَ العربَ ما وجدوا في البلاد الفارسيّة من ألوان الحياة الرغيدة، والنعمة في العيش، ومن أنواع الفنون والطعوم، على أنّهم أدركوا حاجتهم للتقليد والثقافة إدراكهم لحاجات إمبراطوريّتهم العظيمة، فلم يحاولوا فرض وسائلهم البدائيّة على الشعوب المغلوبة، بل أقاموا أنفسهم رعاةً للفنون والآداب أينما ذهبوا، وعملوا — منذ استقرارهم بفتوحهم– على تغذية الفنّ والأدب بما يتّفق وحاجات الإسلام.

ومن الغريب أنّه بالرغم من حبّ العرب للجمال، لم يظهر من بينهم كثير أو قليل من أهل الفنون، والواقع أنّ الفنّ الإسلاميّ يدين بوجوده إلى أناس من مختلف الشعوب، استخدمهم العرب، فاسبغوا على ذلك الفنّ كلّ ما لديهم من مواهب وإحساس بالجمال، ويظهر أثر هذا واضحًا في فنّي العمارة والزخرفة، اللذين سادا جزءًا كبيرًا من العالم المعروف وقتذاك، على حين حالت قيود العقائد المتوارثة التي فرضها رجال الكنيسة دون تقدّم في التصوير والزخرفة في أوروبا.

ولا شكّ أنّنا واجدون أسرار ذلك المزيج الثقافيّ الفنّيّ الذي خلقه العرب، وعاشوا في جوّه إذا عرفنا ما يأتي:

1. أنّ قوّة الإسلام وسهولة اكتساحه لبلاد تمتدّ من الهند ونهر جيجون شرقًا إلى المحيط الأطلنطيّ غربًا، هي إحدى عجائب التاريخ. والأعجب أنّ العرب استطاعوا بقليل من الرائدين، الاحتفاظ بالبلاد المفتوحة دون أن تحدث إقامتهم بهذه البلاد شغبًا أو ثورةً وهذا باستثناء المصريّين الذين ثاروا على الحكم العربيّ مثلما ثاروا قبلًا ضدّ الكنيسة البيزنطيّة، وضدّ حكّامهم البيزنطيّين.

2. أنّ للقوّة وفنون الحرب قيمتهما في الفتح والغزو، ولكنّهما كانتا دون ما تيسر للإسلام من سلطانٍ قويّ على نفوس المغلوبين.

3. أنّه برغم ما حدث أحيانًا من حروب بين العرب أنفسهم، قد شعرت الأمم المغلوبة – وهي المتباينة في أخلاقها وأجناسها- أنّها أكثر قوّةً واتّحادًا في ظلّ الإسلام عنها قبلًا.

4. أنّ الفنّ الإسلاميّ ازدهر من تلقاء نفسه، وتقبلته الشعوب المغلوبة راضيةً، هذا فضلًا عن أنّ نضوجه يرجع إلى بداية القرن الثامن الميلاديّ، وهو نضوج مبكر فيما نعتقد.

والحقيقة أنّ الفنّ الإسلاميّ، أضحى ثمرةً طيّبةً لتطوّر ثقافيّ رائع بين العرب الذين كان إخلاصهم وتقواهم مختلفًا عمّا اتّصف به الأوروبيّون في أوائل العصور الوسطى من جهل وتعصّب هذا فضلًا عن تحرّره من خرافات الوثنيّة والمسيحيّة وخلوّه من الانقسامات المريرة التي عمّت أحوال الكنيسة وقتذاك.

عرض الكاتب في القسم الأوّل من هذا المقال إلى التعريفات المختلفة للفنّ الإسلاميّ، وناقش كلّ واحد من تلك التعريفات، وبيّن أوجه الخطإ والصواب في كلّ منها، ثمّ تكلّم في اختصار عن حياة العرب قبل الإسلام وبعده، وعن عناصر القوّة في تلك الحضارة وسرّ سيادتها وبقائها، وعن الروح الحربيّ الذي اتّصف به العرب إبّان فتوحهم، ومدى فهمهم للحضارات القائمة من حولهم في بلاد فارس وبلاد الروم، وسعة صدورهم في اقتباس ما لا يتنافى منها ودين الإسلام.

علينا هنا أن نوضح الأسباب التي أدّت إلى خلق فنّ إسلاميّ رائع، في وقت لم يسد الغرب فيه سوى فنّ دينيّ ساذج. ولا أحب أن أُتّهم بالدفاع عن العرب أو التحيّز للإسلام، بل أصبح من يشعر بذلك منّي أن يقرأ – ولو قليلًا- في تاريخ الحروب الصليبيّة، فانّه سوف يمتلئ دهشةً حين يتّضح له أنّ الصليبيّين أرادوا من وراء ادعائهم تحرير الأراضي المقدّسة، تحطيم حرّيّة المسلمين أنفسهم، وإجبارهم بحدّ السيف – لا بأساليب الإقناع المسيحيّة – على التحوّل عن الإسلام، الذي نعموا في ظلاله بالحرّيّة المطلقة إلى دين آخر يقدّس امتيازات الأقليّة ويستعبد عامّة الشعب استعبادًا عقليًّا، واقتصاديًّا قاسيًا.

والأكثر من هذا، أنّ الصليبين ختموا كثيرًا من انتصاراتهم بمذابح لا رحمة فيها ولا هوادة، ولم يكفهم ما أنزلوه بأسرى الحرب من تقتيل، بل تعدوا ذلك إلى الشيوخ والنساء والأطفال، حتّى زادت ضحايا يوم واحد عن الألف عدًّا، وحدث على عهد الملك جعفري سنة 1098: أن شهدت شوارع بيت المقدس استشهاد عشرة آلاف نفس في يوم واحد، فضلًا عن إحراق اليهود أحياء في معابدهم وكلّ ما عمله الصليبيّون للتكفير عن آثامهم، هو ذهابهم إلى الكنيسة لترتيل أناشيد الحمد والثناء على ذلك النصر المبين.

فلا عجب إذًا، أنْ اختفت أسباب الجمال من الحياة الأوروبيّة على حين دفعت مُثلُ الإسلام العليا إلى الاهتمام بالفنون ورعايتها، حتّى بدت الفنون الإسلاميّة بغير حاجة إلى تحسين بعد قرون من نشأتها.

والحقّ أنّ الإسلام دين تسامح وحرّيّة، لأنّه لا يعرف بنظام الطبقات، ولا يقرّ امتيازات المولد، وليست له منظّمات إكليروسيّة، ولا سلطان إكليروسيّ. وتبدو تعاليم هذا الدين سهلةً معقولةً للمبتدئين فيه، إذا قورنت بتعدّد الآلهة الوثنيّة أو تعقّد المذاهب المسيحيّة، كما ينظر المسلمون إلى من عداهم نظرة استهانة ولكنّهم على أيّة حال لا يفكرون مطلقًا في اضطهاد من يقيم بينهم، من أجل عقيدته، ثمّ إنّهم يرحّبون بمن يدخل من هؤلاء في الإسلام الذي لا يقرّ إلوهيّة المسيح ولا يعترف بضرورة التضحية بالنفس من أجل خلاص البشر.

وإنّه من اليسير على ذوي المشاعر الرقيقة تقبّل دين الإسلام والتسليم بشروط الإيمان، وأداء أركانه الخمسة، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله، وأداء الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وإخراج الزكاة، وحجّ البيت لمن استطاع إليه سبيلًا ولا شكّ أنّ هذه المبادئ السهلة، هي السبب في سرعة اعتناق العرب للإسلام وهي السبب في انتشاره دون مقاومة كبيرة في كثير من البلاد، فعمرت القلوب بالإيمان وقوي الإحساس بالوحدة الدينيّة، وسادت المعتقدات الطيّبة بين أجناس متباينة، وهو ما لم يحدث له مثيل من قبل، فلو أنّ الإسلام انتشر بحدّ السيف –كما يدّعي البعض– لجاز أن يكون في حكم العدم، ما نسميه اليوم "فنًّا إسلاميًّا".

ولعلّ العرب هم المثل الوحيد الذي ترك أثرًا قويًّا في الاقاليم التي سيطروا عليها من العالم، ولا يزال أهل تلك الأقاليم متأثرين بما أخذوه عن العرب، سواء في مظاهر حياتهم وعاداتهم، أم في دينهم ولغتهم وحروف الكتابة عندهم.

نشأ الفنّ الإسلاميّ في رعاية أهل الصحراء، الذين لم يكن لهم من ألوان الفنون سوى نظم الشعر وحبك قوافية، بل لعلّهم عجزوا – في البداية – عن إدراك أيّ تعبير فنّيّ آخر، غير أنّهم تأثّروا كثيرًا بما شهدوا من فنون الأمم الأخرى خلال عصر الفتوحات التي قاموا بها، وبدا غريبًا من هؤلاء الذين ظلوا أجيالًا لا يتأثّرون بما حولهم من حضارات زاهرة أن يُقبلوا إقبالهم الشديد على اقتباس كلّ ما يتّفق وتعاليم الإسلام، ومن هذا يتضح أنّ بلاد العرب ليست النبع الذي انبثق منه الفنّ الإسلاميّ، وإنّ تكوّن ذلك الفنّ هو من مختلف العناصر التي لم يسبق لها أن مزجت مثل هذا الامتزاج القويّ، ولا أنّ انسجمت في نغمة ذات تقاليد فنيّة ثابتة، فالزخارف النباتيّة — وهي حركة أساسيّة في الفنّ الإسلاميّ– اقتباس من الفنّ الفارسيّ، والعقد والقبّة معروفان في العمارة من قديم الزمان، والمحراب المجوّف مأخوذ عن " الشرقيّة" المعروفة في الكنائس القبطيّة، والأمثلة كثيرة على ما هو مستمدّ من الفنّ البيزنطيّ وغيره من الفنون.

وفيما عدا ما أخذ العرب عن الفنّ البيزنطيّ – عن طريق الفنّانين والصنّاع البيزنطيّين – لم تستطع أوروبا أن تقدّم للعرب شيئًا يمكن اقتباسه أو المساهمة به في فنّ جديد خاضع لأصول دينيّة معيّنة، وإحساسات شرقيّة خاصّة وعلى الرغم ممّا تنبّهت إليه أذهان العرب من مشاهد بلاد الغرب، فانّ معايير الجمال الأوروبيّ لم تجتذبهم إليها بل ظلّوا — منذ عصر الفتوحات– يضعون الصين في المرتبة الفنيّة الأولى بين أمم العالم.

والواقع أنّ تطوّر الفنّ الإسلاميّ وانتشاره في بلاد تمتدّ أكثر من ستّة آلاف ميل وفي زمن يقلّ عن قرن من الزمان، ليس مردّه إلى سلطان العرب الحربيّ وقوّتهم العسكريّة، بل إلى الأفكار المثاليّة التي دلّت دائمًا على أنّها أبلغ أثرًا من سلطان الجيوش، ونعود فنقول إنّه لو كان انتشار الإسلام بحدّ السيف، لما قُدّر لتأثيره وفنونه أن يستمرّا أكثر من جيل أو جيلين، ولما وجدنا مادّةً خصبةً لموضوع هذا الحديث، وقد اقتصرت الأعمال الفنّيّة في بداية الأمر على ما أنشأه المسلمون من مساجد، إذ اشتدّت حاجة الناس — أوّل عهدهم بالإسلام — إلى دور للعبادة في كافّة بلاد الإمبراطوريّة العربيّة المترامية، ويمكن القول إنّ الناس أتمّوا ما احتاجوا إليه من تلك المساجد في سرعة فائقة، ثمّ إنّ العرب حوّلوا– بطريقة تتّفق ومطالب الإسلام– عددًا من الكنائس كانت من قبل معابد وثنيّةً، ثمّ زادت حركة التعمير والبناء وأخذ الفنّانون والصنّاع والعمّال ينتقلون من مكان إلى مكان، وينفضون أيديهم من عمل تمّ، إلى مشروع يراد إتمامه، حاملين معهم أصولًا فنّيّةً مقرّرةً، صارت طرازًا واضح المعالم على مرّ العصور، ثمّ أخذ كثير من العرب

الفاتحين – الذين عاشوا رُحَّلًا في بلادهم- يتنقّلون في أرجاء إمبراطوريّتهم، إثر تخلّصهم من الضغط الاقتصاديّ الذي استحكم في شبه الجزيرة، واقتبس هؤلاء فيما اقتبسوه صورًا ورسومًا كلاميّةً وفنّيّةً، أعانت على نشر الفنّ الإسلاميّ، وأدّت في النهاية إلى وحدته.

ويُعتبر حبُّ العرب للجمال، القوّة الدافعة للفنّ الإسلاميّ، ثمّ أخذ هذا الفنّ عن الفرس روعة الشكل، وبهجة اللون، وبفضلهما بلغ ما بلغ من تنوّع داخل نطاقه العامّ، وهذا التنوع ذاته أحد الخصائص القويّة التي يمتاز بها الفنّ الإسلاميّ.

ولأوّل مرّة – عقب فتح فارس سنة 636-641 اتّصل العرب اتصالا وثيقًا مباشرًا بشعب على جانب كبير من الحضارة، ويُعدّ دخولهم المدائن- وهي العاصمة الكبرى لملوك ساسان- حادثًا هامًّا بالنسبة لهم وبالنسبة للعالم كلّه، ورأى العرب النعمة وفيرةً وحياة الناس يسيرةً، على غير عهدهم ببلادهم، فالطعام كثير، والدّعة شاملة، والثقافة يانعة، والرفاهيَة لا عهد لهم بها، إلّا فيما سمعوه عن الترف البيزنطيّ.

ولا غرابة أن تغدو هذه المرحلة بداية تحوّل خطير في تاريخ العرب على أنّه إذا كان من المحتمل أن يلجأ العرب إلى تحطيم ما لم يستطيعوا حمله من مغانم البلاد المفتوحة –كما يفعل الغزاة عادةً – فإنّهم لم يلجئوا فعلًا إلى تلك الوسيلة، وإن ظلّ ما استولوا عليه، مما خفّ حمله وعظم شأنه، غير معروف لدينا تمامًا.

وعلى الرغم من إعجاب العرب الواضح بالحضارة الفارسيّة، فانّ طموحهم المعروف دفعهم إلى أن يخلقوا لأنفسهم حضارةً خاصّةً بهم، وإنْ كان إحساسهم بالعجز عن مواجهة مشكلةِ حكمِ شعوبٍ تفوقهم ثقافة تنظيم، جعلهم يجتهدون في مسألة تلك الشعوب، بأنْ أدخلوا في خدمتهم رجالها من الشعراء والفنّانين والصنّاع، فسنحت بذلك فرصة جديدة لازدهار الآداب والفنون الفارسيّة، حتّى أضحت نفسها جزءًا من الفنّ الإسلاميّ.

على أنّه ليس معروفًا على وجه التحديد، الدور الذي لعبه الفرس في بلاط الأمويّين بدمشق وإن كان من المعروف جيّدًا أنّهم شغلوا معظم المناصب الإداريّة والثقافيّة الخطيرة مدّة قرنين أو ثلاثة من حكم العباسيّين في بغداد، أي إنّ نفوذهم بقي إلى أن استولى عليها هولاكو حفيد جنكيزخان، ولا شكّ أنّهم كانوا عاملًا رئيسيًا في نموّ مدرسة فنّيّة جديدة يطلق عليها "فنّ ما بعد الساسانيّ" وهو الفنّ الذي نشأ بعد زوال الساسانيّين وفي أوائل عهد المسلمين، والذي لم يبقَ لنا منه – لسوء الحظ – إلّا القليل.

في المقال السابق من هذا البحث تكلّم الكاتب عن تسامح الإسلام وأهله في الحرب والسلم، وعارض فكرة انتشار الإسلام بحدّ السيف، وقارن بينه وبين الديانات الأخرى من حيث سهولة التعاليم بالنسبة للمبتدئين، ثمّ عرض لنشأة الفنّ الإسلاميّ خارج شبه الجزيرة ورعاية أهل الصحراء لذلك الفنّ، واستجابتهم الطيّبة لفنون البلاد التي تكوّنت منها الإمبراطوريّة الإسلاميّة، وذكر كيف أنّ الفنّ الإسلاميّ نبت شرقيًّا في نشأته واتّجاهاته، وإنّ دوامه وانتشاره ليسا راجعين إلى تفوّق العرب الحربيّ، ولكنّ إلى الأفكار المثاليّة التي دلّت دائمًا على أنّها أقوى من سلطان الجيوش، ثمّ أختم المقال بالتمهيد للكلام عن الدور الفنّي الذي لعبه الفرس في فجر الإسلام.

في الوقت الذي انغمس فيه الأوروبيّون في ظلمة العصور الوسطى وجهالتها، برع الفرس في مختلف الفنون والصناعات وفروع العلم المتنوّعة، مثل: الطبّ، والفلسفة، والفلك، والملاحة. بل أخذت شعوب حديثة عهد بالإسلام –كشعوب شمال أفريقيا وإسبانيا– تسير بخطوات واسعة نحو التقدّم والمدنيّة.

أمّا أهل الغرب فقد ظلّوا على جهل بتغلغل الأثر الفارسيّ في الفنّ والثقافة في جزء كبير من أوروبا وآسيا، ومرجع ذلك الجهل، وسببه الدراسات الكلاسيكيّة واتّخاذها أساس التعليم عندهم، فقد آمن أهل أوروبا إيمانًا راسخًا بالحضارة اليونانيّة والرومانيّة، ثمّ بالحضارة المصريّة، واعتقدوا أنّ تلك الحضارات هي وحدها التي تستحقّ الدرس والبحث.

ظلّ طلاب العلم من الأوروبيّين يلقّنون بأسلوب بالغ التأكيد، أنّ انتصار الإغريق في واقعة ماراتون، وترموبيلة، وسلانيس – في القرن الخامس قبل الميلاد– أنقذ حضارتهم من تدمير محقّق على أيدي الفرس البرابرة العتاة. كما لقنوا أنّ الأسرة التي انحدر منها هؤلاء، وهي الأسرة الأخمينيّة (330– 550ق.م) قد حكمت بعناية ورعاية وحسن وتدبير أكبر إمبراطوريّة عرفها التاريخ وقت ذاك، وإنّ الحضارة الفارسيّة بلغت من السموّ والتقدّم ما لم تبلغه الحضارة الإغريقيّة في تلك الأيام.

وإذا كان من المعروف أنّ الفنّ هو المرآة التي تنعكس عليها عقليّة أصحابه، فإنّ تقدير خصائص فنٍّ ما، لشعبٍ ما، يتطلّب فهمًا صحيحًا سليمًا، فعلينا أن نلمّ المامَ العارف بوجهة نظر ذلك الشعب الفلسفيّة وعواطفه الدينيّة، وهذا لازم جدًّا بالنسبة للفنّ الفارسيّ.

والفنّ الفارسيّ على عهد المسلمين ببلاد فارس، فنّ إسلاميّ صرف، غير أنّه يفوق أروع ما جادت به مدارس ذلك الفنّ من حيث دقّة الشكل وانسجام اللون، وحسن الذوق، وكمال الأداء، وهي صفات قلّ أنْ توجد على هذه الصورة في فنّ آخر.

وإذا سألنا عن أسباب ذلك، كان الجواب أنّ الفرس عاشوا منذ فجر تاريخهم أمّةً مثاليّةً، بل أكبر أمّة مثاليّة عرفها التاريخ، ويمكن تأييد هذه المقولة – التي تبدو غريبةً – بما هو باقٍ من آثارهم، والناظر المتأمل في تاريخ الفرس وآثارهم القديمة، لا يستطيع أن ينكر ما نقول.

ومن المحتمل – من باب الفرض العريض – أن يكون إنسانٌ قبل إبراهيم أو شعب أقدم من إسرائيل، عاش عيشة التوحيد واطمأنّ إليها وآمن بها، ولكنّ هذا الاحتمال لا يتّفق وما جاءت به الأديان، ولا يتمشّى والأفكار السامية، على أنّ موضوع الأسبقيّة الدينيّة في عقيدة التوحيد، لم يدرس دراسة موضوعيّةً بعد، ولم يشغل العلماء أنفسهم بالموضوع لذاته بسبب ما يحيط ذلك الموضوع من ادعاء وغرور جنسيّ.

ومع ذلك فليس من السهل أن نتجاهل ما عثر عليه الباحثون عن الفرس القدماء من أنّ عقائدهم الدينيّة لم تخرج عن الإيمان بإله واحد، مع وجود قوى أخرى مناهضة لفكرة الخير، وهي ما يشابه فكرة الشيطان عند اليهود، ويحيط بالإله الواحد عدّةٌ من الآلهة الثانوية لها طبيعة الملائكة، ولها من القداسة ما للملائكة الأربعة العظام الوارد ذكرهم في كتاب أخنوخ، وهم: جبريل، وعزرائيل، وميكائيل ورفائيل. وهذه الآلهة الثانويّة في الديانة الفارسيّة تشبه القدّيسين الذين عرفتهم المسيحيّة أوّل عهدها, وحين أخذت جماعات من الإيرانيّين تهاجر إلى أواسط آسيا والهند حوالي القرن العاشر قبل الميلاد، كانت الهند حينذاك تؤمن بالديانة الويديّة، وهي ديانة لا تعترف بالوثنية إطلاقًا.

ويتّضح ممّا سبق وجه الشبه بين عقائد الإيرانيّين القدماء واليهود في فكرة التوحيد. وإذا كان "العهد القديم" وعد بجزاءات ماديّة للثواب والعقاب، فإنّ معتقدات الفرس — قبل الإسلام– عن الحساب في الآخرة، تتلخّص في أن عمل الفرد ليس شيئًا بجانب النيّة الطيبة أو الشرّيرة التي يستوجب صاحبها من أجلها الثواب أو العذاب، وتلك هي فكرة الجنّة والنار المعروفة.

ومن المدهش أن نجد في بعض آيات العهد القديم ما يدلّ على انتشار الوثنيّة بين اليهود، كما نجد يشوع يذيع على الناس أوائل القرن السابع قبل الميلاد: أن الإيمان بالله يتعارض وعبادة الأصنام، وأنّ الصور المنحوتة محرّمة بنصّ ما جاء في التوراة من سفر الخروج.

وخالف الفرس الأشوريّين والمصريّين وغيرهم من حيث تحرّرهم من الفزع من الآلهة السماويّة، وممّا يبثّه القساوسة في قلوب الناس من الخوف من تلك الآلهة، وجاءت فنونهم وأشعارهم خير شاهد على تحرّرهم من ذلك الخوف الذي تملّك جيرانهم.

وأيّد كراهِيَة الفرس للوثنيّة كثيرٌ من كتّاب الإغريق، وفي مقدّمة هؤلاء المؤرخ هيرودوث حيث قال: "ولم يألف الفرس أن يقيموا لأنفسهم تماثيل أو معابد أو مذابح، وهم يتّهمون من يفعل ذلك بالهوس والجنون، لأنّهم لا يتصوّرون أن تكون للآلهة طبيعة مثل طبيعة البشر كما يعتقد الإغريق".

ولابتعاد الفرس عن عبادة الأصنام وكراهيتهم لها، دلالات أخرى، إذ الحقّ أنّ مستنيري الفرس وعامتهم على السواء، كانوا — إلى ما قبل المسيحيّة – على درجة كبيرة من السموّ الروحيّ، ساعدتهم على الإدراك فكرة الإله الواحد الموجود، الغائب عن الأنظار، وهي الفكرة التي تناقض فكرة "الحلول" التي تعتبر أساس العقائد عند الشعوب البدائيّة.

وأكثر العقائد ذيوعًا بين الفرس هي المانويّة التي انتشرت في القرنين الثاني والثالث الميلاديَّين، بدرجة هددت كلًّا من الزرادشتيّة والمسيحيّة لولا أنّها حوربت بشدّة منهما.

أمّا الزرادشتيّة — وهي أقدم الديانات الفارسيّة وأهمّها – فيمكن تتبّع أثارها في المراحل الأولى من التاريخ الفارسيّ، وهي تتركّز حول عبادة ميثرا (إله النور) واعتباره مصدر اهورا مزدا الإله الواحد الخالق وهذه العلاقة تشبه إلى حدّ ما العلاقة بين الأب والابن (الرب والمسيح)، ويكون ميثرا هو الإله الوحيد الذي يمنح عبادة الرحمة والخلاص. وفي العهد الروماني كان ميثرا مرموزًا إليه بالشمس والضوء واعتبر الإله المنقذ والإله الخصيم للكذب والخطيئة.

وأصبحت عبادة ميثرا أواخر القرن الثاني الميلادي، دينًا رسميًّا للإمبراطوريّة الرومانيّة، وذلك على عهد الإمبراطور أورليوس، وكادت تصبح دينًا عالميًّا في القرن الثالث الميلاديّ، واستمرت مدّةً طويلةً مصدر خطر على المسيحيّة، وتعرّضت الكنيسة لهجماتها في نواح كثيرة، وبذلت المحاولات لإيجاد نوع من التوافق بينهما، كتغيير موعد الاحتفال بعيد ميلاد المسيح من ليلة السابع من يناير إلى ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر، وهي ليلة عيد ميلاد "ميثرا" ذاته، الذي كان يتمّ الاحتفال به بإضاءة الأشجار بالشموع رمزًا لرغبة الإنسان الصادقة في المساهمة بنصيب في مساعدة ميثرا ليستطيع أن يمحو بضوئه ظلمةَ أطولِ ليلة في

العام، وليحلّ محلّها النور والخلاص، غير أنّ عبادة ميثرا لم تلبث هي الأخرى أن حوربت كما حوربت المانويّة من قبل.

ثمّ تحوّل الفرس إلى الإسلام عقب الفتح العربيّ لبلادهم، واعتنقوا المذهب الشيعيّ، ووجد التصوّف بين الفرس والمسلمين بيئة صالحة للانتشار والازدهار مدّة من الزمان.

إذًا، فالزخرفة النباتيّة (وهي ما يسمى الآرابك) التي تعدّ صفة مميّزةً للفنّ الفارسيّ قبل أن تصير صفةً مميّزةً للفنّ الإسلاميّ، والتي يصعب تحديد بدايتها في جدار مبنًى أو صحيفةِ كتاب، ولا كيف تنتهي فجأةً حين تحول نهاية السطح دون استمرارها، إنّما ترمز إلى فكرة الزمن والفضاء اللانهائيّ وقصور المعرفة الإنسانيّة عن إدراك حقيقتهما.

على أنّ الفرس قنعوا بقبول الأشياء قبولًا عاطفيًّا، ورضوا بذلك ما دام فيه رضا لإحساساتهم، وصرفوا النظر عن إدراكهم لها إدراكًا عقليًّا كاملًا ومن يدري لعلّهم كانوا على علم ببعض نظريّات المدرسة الإيليّة الفلسفيّة، ففي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد قال برمنيدس وزينون في كلامهما عن المادّة:

إنّ الحقيقة الوحيدة هي ما أطلقوا عليه " الديمومة"، وهي العلّة المجرّدة التي جرى هيجل وراء البحث عنها دون جدوى، والتي تعتبر أصلًا لجميع الأشياء, إذًا فإنّ ما ندركه حسيًّا ليس له من الحقيقة غير ما نضفيه نحن عليه.

ملك الفرس زمام لغتهم الجميلة، واستخدموها استخدامًا صحيحًا، ولو أنّهم أرادوا أن يجعلوا لها قواعد كما فعل الإغريق بلغتهم، لأمكنهم ذلك في يسر، ولكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث حتّى القرن التاسع الميلاديّ، على أقلّ تقدير، ولعلّ ذلك كان إيمانًا منهم بنظريّة "اللاحقيقة"، التي بالغوا في الوصول بها إلى أبعد حدودها المنطقيّة، وقالوا في النهاية: إنّ النظريّات الفلسفيّة ليس لها حقائق كغيرها من الأشياء، فلا ضرورة إذًا لبذل جهد في صياغة تلك النظريّات.

وظهر أثر تلك الفلسفة وانعكست أضواؤها على التصوير الفارسيّ، حيث بدا واضحًا أنّ حقيقة الموضوع ليست شيئًا ذا أهميّة بل هي ثانويّة جدًّا ما قوربت بالمؤثرات الزخرفيّة. ويبدو أنّ الفرس وجدوا أنّ الأحلام البديعة والخيال الجميل أكثر إيناسًا ولذّةً من الحقائق الجافّة الجامدة، حتّى إنّ إعجابهم المجرّد بالمنسوجات الغالية والأزهار الجميلة والحلى البرّاقة، لا يختلف عمّا لو كانت حالّةً في أشخاص، ولم يخرج

تدوين الفرس للتاريخ عن هذا المبدإ، فلم تكن الحقائق وحدها في مادّة ذلك الموضوع، بل إنّهم أهملوا كثيرًا من حوادث التاريخ واستبدلوا به ما جمعوا من أشعار شعرائهم الذين أحالوا التاريخ أقصوصةً عذبةً وروايةً مملوءةً بالخيال، وتتمثّل هذه الاتّجاهات في الملحمة الفارسيّة الكبرى " الشاهنامة" التي ألّفها الفردوسي (940-1020م) وضمّت أشعارها تاريخ ملوك الفرس في ستين ألف بيت استغرقت صياغتها ثلاثين عامًا، وعلى الرغم من أنّ الحقائق ليست هي أكثر تلك الأشعار، فإنّ الفرس يعتبرونها وثيقةً تاريخيّةً هامّةً. ومن أمثلة ما فيها أنّ أعمال رستم الباهرة استغرقت ثمانية قرون، مع أنه لم يعمّر هذه المدّة بالطبع.

وقد تدفع الغرابة والدهشة بعض الناس للسؤال عن ذلك، فيجيب الفرس بقولهم: "ليس في الأمر ما يستدعي التفكير، إنّنا نحن معشر الفرس لا نعطي المسائل كلّ تلك الأهميّة، فلماذا يعطيها السائل كلّ ذلك الاهتمام؟!

وأخيرًا فليس من المهمّ لدينا أن يعنى الفرس بإعطاء المظهر أهمّيّةً أكبر من الحقيقة، وإنّما يهمّنا ويشوّقنا اهتمامهم البالغ بالقيم الزخرفيّة للأشياء ولو على حساب جوهر الموضوع، وهذا وحده هو ما نقدّره ونعجب به في الفنّ الفارسيّ.